الفصل السابع

الغيرة في الأسرة والمجتمع

لقد كان الكلام عن الغيرة في الفصل السالف مقصورًا على العلاقة بين الزوجين.. بيد أن حدودها لا تنتهي عند هذه العلاقة؛ الغيرة تغزو حدود الأسرة والعمل والعلاقات الاجتماعية تبث سمومها الخبيثة فيها وفي كل ناحية من مرافق الحياة.

فإذا رأيت الغيرة قد أنشبت أظافرها في أحد من معارفك أو زملائك أو أي شخص آخر، فاعلم أن وراءها يكمن شبح الخوف وأن الخوف مصدره تعب الخلايا العصبية، وهو في الوقت عينه السبب والعامل الأقوى في مضاعفة هذا التعب.

من ذا الذي لم يعرف في دوائر الأعمال تلك السكرتيرة الغيورة على مركزها ومقامها ومستقبلها، وما تعلقه من الأهمية على نفسها.. فستساء بشدة من كل من عداها، إذا ما حاول أن يؤدي عملًا خيل إليها أنه من اختصاصها؟ وقد تضطر إلى قضاء ساعات أطول وبذل جهد أكبر والعمل بأمانة وذمة أكثر من زميلاتها وزملائها بسبب هذه الغيرة. وتفاخر بذلك بالرغم من شكواها بغير انقطاع من أن الآخرين لا يؤدون واجباتهم على الوجه الصحيح وقد تصر على أن يعهد إليها تأدية أعمال هي في الواقع

من اختصاص سواها وإذا رأى مدير العمل أن يحيل مسؤولية على موظف أو موظفة من زملائها، تثور غضبًا وتعد هذا إهانةً لها.

والواقع أن مزاجها سريع التغير، فهي تنتقل من حالة وجدانية إلى أخرى كل الوقت تقريبًا، وذلك لأن أعصابها مجموعة من الأوتار الحساسة تتأثر بكل حركة وتؤذيها أتفه حادثة، وقد ترضى عن بعض الأشياء وتسر لها ولكن هذا لا يدوم إلا دقائق أو سويعات، إذ لا تلبث أن تكتشف في أقوال الغير وتصرفاتهم ما يشعرها بتحقيرها، في حين أن شيئًا من هذا لم يكن مقصودًا أو موجهًا إليها ولا يحدث بتاتًا أنها تساهم في دعابة أو نكتة بريئة، بل لا تستطيع ذلك إطلاقًا وتبدي في حركاتها وسكناتها وطريقة كلامها أنها لا تحب أحدًا من زملائها وزميلاتها في العمل.

ثم تنصب كراهيتها تدريجيًّا على أحد هؤلاء وتتركز فيه وقد يكون رجلًا أو امرأة أكفأ منها وأصغر سنًّا. ففي كلتا الحالتين تتسلط عليها تلك الفكرة المؤلمة الملحة التي تهيئ لها أن تلك المرأة أو هذا الرجل يضمر لها العداء سرًّا. ومن هذه النقطة يخيل إليها أن أشد الأعمال براءة التي تقوم بها هذه المرأة وأبعد المسالك عن الأذى، موجهة ضدها، فتقول في نفسها: (إنها تعمل على سلب وظيفتي مني.. وتشي بي إلى المدير وتدس لي السم بكل وسيلة ممكنة وتثير الآخرين في المكتب ضدي. إنهم يسخرون بي في غيبتي.. أعرف ذلك وأشعر به).

السكرتيرة المتجولة...

جاءتني يومًا مريضة تشكو وسواسًا يهيئ لها أن زملاءها في العمل يكيدون لها ويضطهدونها. وقد كان من محاسن هذه الشابة التي أوشكت على الثلاثين، أنها كانت شديدة الذكاء فأدركت أن ما يساورها من هذه الأفكار وسواس في حاجة إلى العلاج، فإن لم تسارع في ذلك تطورت حالتها إلى ذلك النوع الخطير من الجنون الذي يسمونه جنون المراهقة أو (شيزوفرينيا).

وقد جاءت هذه الشابة– واسمها ماري– إلى نيويورك من بلدة صغيرة في إحدى الولايات الغربية الوسطى ومن أسرة طيبة فقيرة، لم يكن لأفرادها نصيب يُذكر من الثقافة ولكنهم اشتهروا بالجد والعمل وقد حرص والدها على بذل أقصى الجهد في توفير كافة المزايا التي تهيئ لها حياة ناجحة سعيدة. وكانت ماري بطبيعتها طموحة، نشيطة في حياتها المدرسية، غيورة على عملها، تؤدي واجباتها بكل ثقة وأمانة. وبفضل تفوقها، فازت بمنحة مالية من إحدى الجامعات وأتيح لها بوساطتها وبما أعانها به أهلها أن تلتحق بتلك الجامعة حيث أتمت الدراسة فيها والتحقت بعمل في إحدى الدوائر الصناعية. وكانت مولعة بوظيفتها ناجحة في عملها ولا يخفى عليها ما صادفها فيه من حسن الطالع، فضاعفت جهدها في الاستزادة من نجاحها ومواصلة تقدمها. وقد أرادت أن تبرهن لوالديها– وقد كانا غير راضيين عن هذه الوظيفة– أن في وسعها أن تضرب فيها بسهم وافر. وفي خلال السنوات الأولى من الحرب العالمية، تضاعف العمل فاضطرت إلى

مضاعفة جهدها وزيادة ساعات العمل تبعًا لذلك. وأُصيبت بحمى نصح إليها بعدها أن تستريح أيامًا للاستجمام ولكنها أبت، وعادت إلى مكبتها بعد المرض مباشرة.

ومما زادها حبًّا لوظيفتها أن صداقة توثقت عراها بينها وبين إحدى زميلاتها في العمل، وهي شابة تُدعى (أليس) لها صلة قرابة برئيس الشركة التي كانت تعمل فيها (ماري) وكانت (أليس) أول فتاة تعلقت بها (ماري) وقويت أواصر الصداقة معها، فقد تمثلت فيها جميع الصفات التي كانت (ماري) تعجب بها وتود لو أنها من الصفات التي حبتها الطبيعة بها: جمال وثقافة وآداب اجتماعية عالية وسهولة طبيعية في علاقتها مع الغير. وطالما تمنت (ماري) أن يكون لها يومًا صديقة تتحلى بهذه الأخلاق وقد تحققت أحلامها، وكانت فخورة إلى أقصى حد بأن (أليس) اتخذتها دون سواها من الزميلات صديقة حميمة لها وخيل إليها أنها بهذه الصداقة قد كوفئت على جهودها وما ضحاه والدها في سبيل تربيتها والعمل على إسعادها.

على أن هذه الصداقة السعيدة لم تلبث أن شابتها شائبة كادت تودي بها؛ فقد أخذت الشبهات تلقى على علاقتهما وشاحا كشفا وأخذت (ماري) ترتاب من إخلاص (أليس)، متوهمة أنها لم تعد تحبها بالقدر الذي تكنه هي (لأليس) وأخذت (ماري) تدرك أن (أليس) تتبرم أحيانا من صداقتها، بسبب عنف هذه الصداقة من جانب (ماري) وقد أوشكت أن تكون تملكًا واحتكارًا. وكثيرًا ما حدا ذلك (بأليس) ألا تحافظ

على المواعيد التي كانت تضربها لتناول طعام الغداء مع (ماري) وتؤثر أن تصحب سواها أحيانًا.

ولما أخذت (ماري) تعاتبها وتنهرها لهذا الصد، غضبت ولما أخذت (ماري) تجهش في البكاء وتقول إنها لن تطيق الحياة إذا حدث ما يقضي على هذه الصداقة لم تبد (أليس) عطفًا ولا اهتمامًا، بل صارحتها بقولها: (إنك بمسلكك هذا شبيهة بامرأة عانس مُصابة بداء العصاب!).

ومن هذه الساعة أصبحت حياة المريضة عذابًا لا يطاق وغيرة وخوفًا لا سبيل إلى احتمالهما. وباتت تمقت الساعات التي تقضيها في المكتب بقدر ما كانت مولعة بها واتهمت (أليس) بأنها تسخر منها بما تتفوه به عنها لزميلاتها وأنها توقع بينها وبين مدير الشركة.

وبعد شهرين لم تطق (ماري) البقاء في عملها فاستقالت.. لا لأن العمل كان شاقًّا، وإنما لأنها لم تستطع أن تكون على علاقة طيبة مع بقية الزملاء والزميلات أو تشعر بارتياح لوجودها معهم. ولم تشأ أن تصادق غير (أليس)، لأنها كانت تعلم أنه ليس بينهم من يشابه (أليس) جاذبية وخلقًا. هذا إلى أنها كانت تخشى أن يحرج شعورها إذا ما سعت إلى إحدى الزميلات وبدأت ترتاب في عارفيها، متوهمة أنهم يقولون عنها إنها (فتاة عانس، غريبة الأطوار). وقد تقلبت بعد ذلك على ثماني وظائف، في ثماني مدن مختلفة.

وسرعان ما أصبحت وحيدة لا صديقة لها، بائسة، لا تميل إلى معاشرة أحد ولا تحب أحدًا– حتى والديها، أخذت تلومهما وتخجل من جهلهما وفقرهما وسذاجتهما ورمت بعقيدتها الدينية عرض الحائط واعتنقت فلسفة مادية كلها مرارة وكراهية، هي مزيج نصف مفهوم ونصف مهضوم، من تعاليم (نيتشه وكارل ماركس وسيجموند فرويد).

وكانت كراهيتها للحياة وغضبها منها منقوشة بحروف بارزة على وجهها وكانت تكثر من التدخين إلى درجة الإدمان ولا تأكل إلا قليلًا، وتسبب عن ذلك إمساك وسوء تغذية وإصابات متكررة بالزكام، فضلًا عن صداع أليم وخمول شامل، ومما قالته لي إنها أصبحت تعتقد أن الحياة ليست جديرة بأن نحياها وأنها تفكر في الانتحار.

ومن الواضح أن هذه حالة جهاز عصبي شديد الحساسية أنهكته كثرة العمل والإجهاد والإصابة بالحمى. هذا عن السنوات التي قضتها في الجامعة في عمل متواصل أنهك قواها واستنفد الكثير من طاقتها.. فقد كان عليها أن تنافس طلابًا أوفر منها حظًّا وكانت طبيعتها الممعنة في مراعاة الأمانة والذمة، تحتم عليها أن تحقق آمال أهلها الذين قاسوا ما قاسوا في سبيل الإنفاق عليها وأن تكون أهلًا للمنحة المالية الجامعية التي فازت بها وقد اضطرت أثناء دراستها في الجامعة أن تعمل جزءًا من الوقت حتى تكتسب ما يعينها على شراء الملابس التي لا تخجل من الظهور بها أمام غيرها من الطلبة، وذلك بمساعدة أمناء المكتبة. بالإضافة إلى أنها كانت

تقضي العطلة الصيفية في الخدمة في إحدى الفنادق، وبذلك لم يتوافر لديها الوقت الكافي أو الحرية لاكتساب الأصدقاء.

ولو أنها كانت منهكة القوى عند التحاقها بتلك الوظيفة التي تحدثنا عنها لما بلغت صداقتها لزميلتها (أليس) ذلك العنف وتلك الشدة. ولا يخطر ببال القارئ أن (ماري) كانت لها ميول جنسية نحو (أليس) أو فتاة سواها، الواقع أنها كانت تخشى أن تكون من هذا النوع من النساء بسبب غرامها بصديقتها وعدم ميلها للرجال بتاتًا، وقد أوضحت لها أثناء العلاج كيف أن تعب الأعصاب يقتل الميول والرغبات الجنسية. يضاف إلى ذلك أن الكثير من حالات الشذوذ الجنسي يعزى إلى هذا التعب، فإذا عولج المريض وفهم حالته النفسية جيدًا زالت ميوله الشاذة.

ومما يدل على أن أعصابها كانت منهكة أنها كانت مرهفة الحس، سريعة الشعور بما يشتم من إهانتها أو تحقيرها ولعل أكبر دليل على ضعفها أن خوفها من أن تفقد صديقتها (أليس) بلغ حد الجنون فضيقت عليها الخناق وحاولت أن تحتكرها وتتملكها ولا تسمح لها بالاتصال بسواها. وترتب على هذا المسلك الذي يعزى بعضه إلى عدم خبرتها بالصداقة والأصدقاء، أنها فقدت أثمن شيء عندها، وقتلت ذلك الحب الذي يجيش في صدرها والذي وصفه أوسكار وايلد في قصته الشعرية البليغة في قوله: (يقتل البعض الصداقة بنظرة قاسية ويقتلها آخرون بالملق والمداهنة. وبقبلة يقتلها الجبان، وبالسيف يقتلها الشجاع، ومن الناس من يحب قليلًا، ومنهم من يحب طويلًا. البعض يبيع والبعض يشتري. بالدموع الغزيرة يميتها

أحدهم وآخر يفتك بها وهو لا يحرك ساكنًا، على أن كلا من هؤلاء يقتل من يحب وكلا يعيش بعده).

وقد تطلب علاجها عدة شهور، استعادت فيها طاقتها العصبية وانتشلتها من تلك الهوة السخيفة التي استسلمت فيها للانقباض وظهرت عليها أعراض الملانخوليا ونزعت إلى الانتحار، وكذلك أخذت في تنظيم حياتها النفسية من جديد ومقاومة أحاسيسها واتخاذ الخطوة الأولى لاكتساب الأصدقاء والاندماج في الحياة الاجتماعية، لا مع النساء فقط، بل مع الرجال أيضًا. وقد أكدت لي في بادئ الأمر أن إقدامها على هذه الألوان من النشاط مستحيل. وذلك لأن الأحاسيس العنيفة كانت تسري كالتيار الكهربائي في جسمها كلما فكرت في اكتساب صداقة أحد، وكانت تبلغ آلامها من الشدة ما يدفع بها مرة أخرى إلى حياة الوحدة والعزلة. وكان لابد أن تفهم جيدا مصدر هذه الأحاسيس وتوقن أنها لا تسبب لصاحبها ضررًا. وكانت ككل مريض طال عليه المرض، تجد مشقة كبيرة في تلقي هذه الدروس واستيعابها. كان لزامًا عليها أن تدرك أن حياتها العقلية لا تعود إلى حالتها الأولى إلا إذا شيدت على أسس جديدة من سلامة التفكير البعيد عن ذاتيتها وشخصيتها.

ولما انتهت من العلاج في أواخر الشهر الرابع، خيل إليها أنها (عثرت على نفسها) بعد فقدها وأصبحت علاقاتها مع الناس حسنة وبات اندماجها في المجتمعات أمرًا يسيرًا وساهمت في الحفلات الراقصة وانضمت إلى ناد وتوظفت في مؤسسة كبيرة، فمكنت علاقتها فيها مع سائر الموظفين

ولم تعد تعتمد في حياتها الوجدانية على شخص واحد، كما حدث من قبل. وثبت أقدامها في هذه المؤسسة بعد أن ظلت تتنقل خمس سنوات متجولة من مدينة إلى مدينة. لقد تحررت من رق الغيرة.

الطفل الغيور..

اهتز الرأي العام أخيرًا لحادث مروع وقع في ضاحية بولاية نيوجرسي بأمريكا، ذلك أن صبية في الحادية عشرة من عمرها قتلت أخاها الأصغر ولما سُئلت عن الباعث الذي دفعها إلى ارتكاب هذه الجريمة قالت إنها كانت تغار من أخيها لشدة العطف الذي كان يفوز به من والديها والعناية التي كانا يخصانه بها. وجاء في تقارير ذوي الشأن بعد فحصها والتحقيق معها أنها ارتكبت جريمتها وهي في كامل قواها العقلية قادرة على التمييز بين الخطأ والصواب وكانت تدرك جيدًا أن فتكها بأخيها والقضاء على حياته عمل إجرامي يعاقب عليه. ومع ذلك فقد رجحت كفة الدافع للانتقام بسبب الغيرة على كفة الوازع الأخلاقي.

لقد كانت هذه الصبية بلا شك مُصابة بالوسواس Obsession بالرغم من أنني لم أفحصها ولا أعرف عنها إلا ما روته الصحف، فإن هناك ما يحملني على الاعتقاد بأن جهازها العصبي لم يكن سليمًا، وأنها كانت فريسة أحاسيسها التي بلغت من الشدة ما جعل الغيرة تتأصل في نفسها وتنمو وتكبر حتى تدفعها إلى ارتكاب هذا الجرم الشنيع!.

إن عدد الأطفال الذين يغارون من أخوتهم وأخواتهم– بسبب عطف الوالدين عليهم وتمييزهم على بقية الأخوة والأخوات– لا حصر له. وتبدو عليهم أعراض الغيرة بشتى الطرق والدرجات، وكثيرًا ما تكون مصدر متاعب للوالدين.. بيد أن المشكلة في هذه المتاعب ليست أخلاق الطفل أو شخصيته المشكلة في الجهاز العصبي .. فإذا رفعت الطاقة العصبية بالدواء وبشيء من العلاج النفساني، زال الوسواس وزالت الغيرة من ذهنه وإذا ترك الطفل بغير علاج ولم تستأصل (الفكرة الثابتة) من ذهنه، زادت أعراض الغيرة وصحبتها أعراض أخرى بدنية وعقلية. والمرض كالنبات السام عبثًا تحاول القضاء عليه بكبته. بل لابد من استئصال جذوره وإصلاح التربة التي نما فيها حتى لا تكون مرتعًا خصيبًا لنمو نبات آخر سام.

عقدة الأمومة..

شاع استعمال هذا التعبير حتى أصبح يُطلق على حالات لا حصر لها.. فكثيرًا ما يوصم البنون والبنات المولعون بأمهاتهم بأنهم مصابون بعقد الأمومة Mother Complex أما أنا فلست أدري معنى هذه العبارة.. إن حب الأم حبًّا صادقًا عميقًا عاطفة نبيلة سليمة سوية لا تشوبها شائبة، وهي عاطفة يتصف بها كل رجل وامرأة وتمر بحياة كل فرد جدير بالحياة، اللهم إلا إذا كان سيئ الحظ فولد من أم شاذة غير خليقة بالحب البنوي. ومثل هذه الأم الشاذة– إذا وجدت– نادرة الوجود.

إن أعظم امرأة عرفتها في حياتي فسحرت بما كانت تتحلى به من صفات هي أمي. وقد ظللت وسائر إخوتي إلى آخر يوم من حياتها– وقد عمرت ٩٧ عامًا– نجد في مجلسها متعة لا نحظى بها مع أي إنسان آخر. فقد كان حبها العميق لنا وتفهمها طبيعة كل منا وحاجاته– على اختلاف هذه الطبائع والحاجات– وما اتصفت به من معاني التسامح والاحتمال، وما امتازت به من ظرف الدعابة والمرح، كانت هذه الصفات كلها مدعاة لتعلقنا بها وشدة حبنا وإخلاصنا لها إلى النهاية، رغم ما بلغناه من سنوات العمر رجالًا ونساء. فإذا شاء أتباع فرويد أن يسموا هذا الحب عقدة أو مركبًا، فلا يسعني إلا أن أقول إنني فخور بأن أكون أحد أولئك الرجال والنساء العظام الذين أحبوا حب العبادة الأمهات اللاتي سهرن على تربيتهم وكنَّ سبب وجودهم.

والواقع أن الناس حينما يتحدثون عن عقدة الأمومة– على افتقار هذا التعبير للدقة– إنما يشيرون إلى إنسان ضعيف الشخصية، خجول، جبان، عاجز عن تحمل المسؤوليات التي يقوم بأعبائها عادة كل من بلغ سن الرجولة والنضوج. وفي كثير من الأحيان، لا تكون الأم ملومة أو مسؤولة عن هذه العيوب. فهي لم تقصد– أو تحاول– أن يعتمد عليها ولدها هذا الاعتماد الكلي الذي منعه من أن يكون مستقلاً في حياته وتصريف أموره وتتطلب حالة أمثاله علاج الخوف والخجل والهرب من المسؤولية، وتنظيم حياتهم من الناحية النفسية حتى يعيشوا في غير تواكل ولن يعيبهم أن يساهموا بالقدر الذي يطيب لهم في عشرة أمهاتهم، طالما كانوا يحتفظون باستقلالهم الذاتي وحريتهم الشخصية. وبالعلاج تزول عنهم

أعراض ما يسمونه (عقدة الأمومة) بالسرعة التي يزول بها تعب الأعصاب وما يشكو منه أصحابه من أرق وصداع وإسهال وقرح معدية، والخوف من الأماكن الفسيحة أو الضيقة وخشية الأقذار والجراثيم وسائر المخاوف الشاذة. ولست أبعد عن الصواب إذا قلت إن علاج هؤلاء لا يتطلب أكثر من مدة تتراوح بين ثلاثة أيام وستة أسابيع، تبعًا لدرجة ذكائهم وقدراتهم على التعاون ورغبتهم فيه. ومما ينبغي معرفته أن منشأ هذه (العُقدة) الخوف من أن يفرق بين صاحبها وبين أمه وهذا لا يختلف بتاتًا عن أي نوع آخر من المخاوف التي سبق ذكرها مرارًا في هذا الكتاب.. أي أنه يستجيب للعلاج الذي يستجيب له الخوف من الحيوانات أو الجراثيم، إلخ. إن أساس هذا كله واحد وهو الخوف من الأحاسيس.

الأم مصاصة الدماء!..

الحب النقي الشريف لا يعيش في عقل سممه الخوف. فالزوجة التي يلازمها وسواس الخوف من أن تفقد زوجها أو شبابها أو جمالها أو سحرها وقوة تأثيرها على الغير– مثل هذه الزوجة لا تستطيع أن تحب زوجها أو أولادها حبًّا صحيحًا؛ لأن الخوف الذي يحتل ناحية من عقلها وينشب فيه أظافره، يستنفد طاقتها وقدرتها على التفكير في أي شخص بالقدر الذي تفكر به في نفسها. والمرأة التي تتقدم في السن بعض الشيء فتشعر بعدم الطمأنينة ويرهف حسها، فيخيل إليها أن الغير يهينونها أو يجرحون كبرياءها كثيرًا ما تتعلق بأحد أبنائها وتمعن في اهتمامها به وعنايتها بأموره وشخصه، وتغار عليه من كل نظرة ولا يرضيها منه بعض العناية ولا تكتفي منه ببعض

وقته، بل تريده كله كاملًا وفي كل وقت. وتوصلًا إلى هذا الغرض تدبر المكايد وترسم الخطط التي تحول دون كل صداقة تقوم بينه وبين غيره، طالما كانت هذه الصداقة لا تشملها. قد تتنازل بالسماح له بأن يدعو أصدقاءه إلى البيت حيث تكون قابضة على زمام السلطة وحيث لها الكلمة العليا، ولكنها تنكر عليه بشدة أن يغشى أماكن لا ترافقه فيها أو أن يشترك في حفلات أو مجتمعات بغير أن تكون معه.

وتدفع الغيرة مثل هذه الأم إلى التدخل في كل أموره؛ فتفتح رسائله البريدية وتفطع عليه رسائله التليفونية أو تجيب عنها إجابات كاذبة، وإذا أُتيحت لها الفرصة فتحت حافظة نقوده لتقف على مبلغ ما أنفق ومبلغ ما تبقى ولتبحث فيها عن الصور الشخصية التي يحتمل أن تكون قد أهدتها له فتاة أو فتيات وتبرر هذه التصرفات المعيبة بقولها إن شدة حبها لابنها تدفعها إلى معرفة كل شيء عنه حتى تحميه من كل أذى وتدفع عنه كل ما يحتمل أن يعرضه لسوء العشرة.

ولا ريب أن الأم التي تتصف بهذه الصفات، بعضها أو كلها، مصابة بوسواس قد يدفعها يومًا ما إلى ارتكاب أمر شائن بعيد عن الحكمة والآداب العامة أو ما يوشك أن يكون إجرامًا. وهذا الوسواس– ككل فكرة ثابتة– يتسلط على عقلها ويقلب نظام حياتها النفسية ويهدم شخصيتها، إلى أن تصبح في حالة تقرب من الجنون فتحاول مثلا أن تقضي على رجولة ابنها، حتى تحرمه من كل صداقة أو نشاط برئ وكل ما يلذ لمثله من الشبان عمله. وتبذل جهدها في أن ينشأ (ابن ماما) كالفتاة

الحيية بدعوى أن أكثر الشباب متصف بالخشونة وسوء الأخلاق التي لا تليق بابنها، وبذلك تربي فيه صفات الخجل والجبن وخشية الأصدقاء الذين من سنه وجنسه وينتج عن ذلك أن يأخذ في الشعور بالسعادة طالما كان في صحبة أمه أو أمثالها من النساء اللاتي في سنها ولا يشعر بالارتياح إذا وجد مع غيرهن من الفتيات اللاتي تقترب أعمارهن من عمره.

وهنا أريد أن أوضح في عبارة لا تحتمل الإبهام، أن الكثير من النساء اللاتي يسلكن مع أبنائهن هذا المسلك مريضات لا شريرات.. إنه الوسواس الذي يسمم عقولهن كما يسمم السرطان جسم المصاب به والمرأة التي تشكو من هذه الفكرة الثابتة نحو ابنها لا تختلف كثيرًا عن المرأة التي تشكو من عصاب الأعمال التكرارية التسلطية، مثل الغسيل المتوالي وتنظيف البيت مرارًا وتكرارًا خشية الجراثيم أو تتجاوز كل شقٍ في الرصيف خوف سوء الطالع.

شذوذ مرضي..

طبيعي أن يتوق الولد أو البنت، بدافع حب الاستطلاع، إلى أن يعرف شيئًا عن النادر والمجهول والغامض من أسرار الحياة؛ فالصبي الذي ينشأ بين إخوته وأقرانه من الذكور يبهره جسم الفتيات لاختلافه عما يعرفه من أجسام الذكور مثله، أما الصبي الذي ينشأ في بيئة كلها من النساء ولم يبت إلا في حجرة النوم التي تنام فيها أمه، تسترعى أنظاره أجسام الذكور أكثر مما تسترعيها أجسام الإناث.

ومن المشاهد أن الطلاق وحياة الأسرة التي هدمتها الحروب أو الأمراض وأجور المنازل التي تتضاعف عامًا بعد عام– كلها تدعو الأمهات وأبناءهن إلى سكنى بيوت ضيقة مزدحمة بمن فيها وحرمان كل من الأمهات والأبناء من كثير من مزايا الحرية والسرية. وهذه من الأسباب التي تحول الكثير من هؤلاء الأبناء على الإصابة بداء اللواط.

والمعروف أن الصبيان الذين يبقون طويلًا في كنف الأم والذين يدينون بتربيتهم ونشأتهم للأم أكثر منهم للأب، يكونون عادة أودع خلقًا وأرق حسًّا وأكثر أنوثة من أولئك الذين تتاح لهم فرصة أطول في علاقتهم بالأب ونصيب أكبر من تربيتهم. وإذا كانت علاقة الأم بالرجال وخبرتها معهم ليست على ما يرام، عمدت إلى تنشئة ابنها بعيدًا عن صفات الرجولة، سواء كان ذلك عن وعي منها أم من عقلها الباطن.. فهي تحاول أن تجنبه خصائص الرجال وتشجعه على التحلي بصفات النساء وكثيرًا ما تحذره من خشونة الذكور وألعابهم العنيفة وثبت فيه الشعور بالارتياح في مجتمعات النساء أكثر منه في مجتمعات الرجال.

ومتى كبر دفعته ميوله الطبيعية الجنسية ورغباته إلى ذلك المجهول الذي لم يكن له عهد بعشرته.. أي ذلك الجنس المحرم الرجل. وفي اعتقادي أن عددًا كبيرًا من المصابين بهذا الداء تعزى إصابتهم إلى الخجل والخوف والتربية الخاطئة، وقد كان بين مرضاي عدد لا يستهان به ممن كانوا شديدي الرغبة في الشفاء من هذا الداء وكانوا يدركون أن الاستسلام له شذوذ يجب التخلص منه وقد جاؤوا للعلاج لأنهم أرادوا أن

يكون اتصالهم بالجنس الآخر أسوة ببني جنسهم من الرجال الأصحاء الذين يعيشون عيشة سوية سليمة. وقد دلت تواريخ الكثيرين منهم على أنهم نشأوا (أولاد ماما) وكانوا مرهفي الحس، ضعاف الأعصاب. وعلاج هؤلاء لا يختلف عن علاج الحالات التي سبق ذكرها- وهي حالات الخوف والخجل، ولا سبيل إلى علاج هؤلاء علاجًا نفسيًّا بغير دواء. فلا النصح والإرشاد ولا الإقناع ولا التوبيخ ولا العقاب، يكون له أثر في شفاء المصاب بهذا الداء.

أبناء الأمهات...

هذه قصة سيدة توشك على الخمسين من عمرها، ولنرمز لها بالحرف (ل).. تزوجت بعد سن العشرين بقليل، ولكنها طلقت بعد عدة سنوات ومنحتها المحكمة حق تربية ابنها الوحيد. والآن قد مضى عليها أكثر من عشرين سنة وحياتها كلها تدور حول محور واحد هو هذا الابن. وهنا نتركها تصف لنا علاقتها بابنها: (لقد كان ابني كل شيء لي في الحياة وكنا صديقين لا مجرد أم وابن. وكان كل الناس يتحدثون عن هذه الصداقة وعن إخلاص الابن البار لأمه الحنون. وكنا نشترك معًا في جميع الأنشطة وأنكرت على نفسي الكثير من مناعم الحياة حتى أُهيئ له التربية التي يتمناها الكثيرون أمثاله. ولما كان لا يزال في سنوات الطفولة والصبا، كنا نذهب معًا إلى المتاحف ودور التمثيل وحفلات الموسيقى والأوبرا في كل يوم من أيام السبت. وبعد ذلك بسنوات تعلمت الانزلاق على الجليد والسباحة وكنت أشاركه هذه الرياضة على الدوام ولما كبر ونضجت ميوله

للرقص وأتقن هذا النوع من الترفيه، علمني رقصة (الرومبا) و(السامبا) فكنا نرقص معًا وكان لا يخطر ببال أحد أنني أمه...).

وسرعان ما تبدل حالها بغتة عندما وقع الابن في غرام فتاة من سنه.. حقيقة أنه كان يصادق فتيات قبل ذلك أحيانا ولكنه لم يكن جادًّا في تلك الصداقة كما أن أمه كانت تحول دون ذلك، لاسيما أنها حرصت على أن تكون هؤلاء الفتيات من صديقاتها حتى لا تسول لهن أنفسهن أن يقتنصن ابنها منها. أما في هذا الغرام الجديد، فقد كانت المسألة بخلاف ذلك.. كانت عين الأم الغيورة سريعة الملاحظة، فأدركت التغيير الذي طرأ على الابن. شهدت تبادل اللحظات بين الحبيبين وأدركت أن سلعتها قد كسدت. وفي الحال هاجت أحاسيسها في عنف ارتعدت له فرائصها وشاع الألم في صدرها وجف اللعاب في فمها وشعرت باختناق كاد يمنعها عن التنفس، ويهتف هاتف في داخلها يقول لها: (لقد أفلت من يدك.. وانتزعته الفتاة منك، سيكون نصيبك الوحدة لم يعد لك في الحياة شيء).

وهكذا اشتعلت نار الغيرة في صدر السيدة (ل) حتى أعمتها عن الصواب، كما كادت تعمي عينيها حقيقة وأخذت منذ ذلك الحين تضمر الكراهية للفتاة التي أحبها ابنها واشتدت رغبتها في الانتقام منها، سواء كان بإلحاق الأذى أو القضاء على حياتها كلية، بالرغم مما كانت تظهره لها الفتاة من احترام وأدب وكياسة..

هذه حالة غيرة ناضجة أوشكت أن تلد مأساة وهي منشأ ثلاثة أرباع المتاعب التي يلاقيها الأزواج من الحموات. فقد تتاح الفرص للابن أن ينال حقه من الاستقلال في الرأي والحياة ويتزوج من الفتاة التي يريدها، ولكنه يجد أمامه مشكلة أخرى، هي مشكلة الأم– إذا كانت كالمريضة التي نحن بصددها أو تقرب منها، وتزداد المشكلة تعقيدًا إذا كانت الأم في حالة مالية لا تمكنها من العيش مستقلة عن ابنها.

والأم الغيورة المريضة– كالسيدة (ل) تكون عادة واسعة الحيلة، داهية، ماكرة، ماهرة في التأثير في ابنها– تأثيرًا يفرق بينه وبين زوجته، وكثيرًا ما تبلغ قسوتها نحو الابن والزوجة حدًّا لا سبيل إلى احتماله؛ تلجأ إلى الكذب وتفسير الوقائع تفسيرًا أعوج وتخلق المشاكل إذا لم توجد، وتمثل أدوارًا قد تنتهي بأسوأ الواق وقد تصاب الأم بسبب الغيرة بأمراض من شتى الأنواع، فيجد الابن نفسه بين نارين.. البر بأمه أو الإخلاص لزوجته ويغلب عليه الفشل في محاولته تكييف الأمور في صالح الزوجة، لأن الأم لا تكف عن اجتذابه نحوها بشتى الوسائل وهو بطبيعة الحال يجبن أمامها ويرضخ لها، لأنه نشأ هكذا شديد التعلق بها والاعتماد عليها وعدم اتخاذ أي قرار بغير رضاها، والأم التي تحب ابنها منذ صغره حبًّا أقرب إلى الملكية منه إلى الأمومة وتظل كذلك بعد بلوغه سن الرشد، فتمنعه من معاشرة أصدقائه وأقرانه حتى تحتكره لذاتها وتحرم عليه اللعب مع من في سنه؛ تجنبًا لما في الألعاب من خشونة الرجال. مثل هذه الأم تضعف الابن وتسلب منه أسمى صفات الرجولة.

ونسبة كبيرة من حالات الطلاق تكون وراؤها أمًّا كالسيدة (ل). ومما يؤسف له أن الزوجة في هذه الحالة إذا كان لها ولد قد تكرر الدور الذي قامت به حماتها فتنشئه نشأة لا تختلف عما نشأ عليه زوجها وتفعل ذلك بغير أن تتعمد محاكاة حماتها. ومثل هذه الحالة التي وصفت كثيرة الحوادث وإليها يرجع الكثير من حوادث الطلاق والشقاء وخيبة الأمل وإصابة الأطفال بالعصاب.

طلب النجدة...

هذه قصة السيدة (ل) التي جاءت لاستشارتي؛ تطلب النجدة من ألم الوحدة والسآمة والمرارة التي تحملها بين جوارحها، منذ زواج ابنها وحرمانها من عشرته. لم تجد في الحياة ما يطيب خاطرها بعد أن أصبح ابنها لغيرها ولم تعد تعنى بزيارة المتاحف أو الإصغاء إلى الموسيقى أو السفر أو حتى المساهمة في ألعاب رياضية. ولم تعد تهتم بالمجتمعات والحفلات، طالما أصبح ابنها لا يرافقها إليها. وكان لا يخلو ذهنها دقيقة واحدة من الحقد عليه وعلى الفتاة التي اتخذها زوجة واستولت على أفكارها الغيرة والأسف الشديد على ما وصلت إليه حالتها.

وكانت النتيجة المحتومة أن تألم جسمها مع عقلها؛ فقد فقدت شهيتها ونقص وزنها فإذا أكلت أصيبت بسوء هضم. أما الأرق فاستنزف جهدها، كانت لا تأوي إلى فراشها قبل الساعة الثانية صباحًا أو الأولى

أحيانًا، ثم لا يجد النوم إلى جفنيها سبيلًا قبل مطلع الفجر، فتظل قلقة، تعيسة، دائمة التفكير في متاعبها مرهفة الحس، سريعة الغضب.

وكانت زوجة الابن لا تنطق بكلمة إلا وتعدها الأم إهانة واحتقارًا لها، ثم تبالغ في تضخيمها حتى يختل تفكيرها اختلالًا يوشك أن يكون جنونًا.

وبعد مواجهتها بسيل من الأسئلة قصت علي التاريخ الذي فصلته في الفصل السابق، وقد أبت في بادئ الأمر أن تصدق أن مصدر الأعراض التي تشكو منها عقلي وأن سببها الغيرة، وأن الغيرة وليدة التعب والخوف. ولما واظبت على تعاطي الدواء يوميا، خفت حدة الحساسية في الخلايا العصبية وزال عنها الأرق والتوتر وأخذت تنظم حياتها النفسية. وليس من السهل على مريضة مثلها في السادسة والأربعين من عمرها أن تنسى دروس الحب الخاطئة التي تعلمتها أثناء السنوات التي قضتها مع ابنها وتتعلم من جديد فن الحب الصحيح السليم، ومع ذلك ليس الأمر في حكم المستحيل، وليس معنى هذا أن العلاج قد حول كراهتها لزوجة ابنها إلى حب. كل ما هنالك أن عقلها قد استراح، فأخذت تكون لنفسها علاقات جديدة وتشغل ذهنها ووقتها بنواح أخرى من نواحي النشاط وأخذت لهب الغيرة ينطفئ شيئا فشيئًا إلى أن أصبحت تواجه الأمر الواقع وتقبل الفتاة على علاتها– كزوجة الابن– بل بدأت فعلًا تنظر إليها نظرة احترام. وحسب هذه النتيجة أن تكون انتصارًا على المرض.

***

وقد استمعت من مرضاي إلى قصص كثيرة من هذا النوع وكان بين هؤلاء أبناء، فضلًا عن الأمهات.. يأتي الابن عادة لاستشارتي في مثل الحالة السالفة، لأنه يواجه مشكلة خطيرة لا يعرف لحلها سبيلًا.. فحبه لزوجته يوجهه شرقًا وحبه لأمه يوجهه غربًا، وهو حائر بين هذا وذاك، لا يعرف للسلام الفعلي معنى ولا يذوق للراحة طعمًا. وسرعان ما تسبب هذه الاضطرابات النفسية أعراضًا بدنية، فيشكو من قرح معدية تارة ومن زكام أو سوء هضم تارة أخرى.. أعصابه متوترة، شديدة الانزعاج، متعبة، فتترك أثرًا سيئًا عند رؤسائه في العمل. ولا يخفى عليه أنه لا يقوم بعمله على الوجه الصحيح. وفضلًا عن هذا كله، فإن ضميره يؤنبه لشعوره بالإثم واعتقاده أن تخيله عن أمه إكرامًا لزوجته، نكران للجميل، وتجاهل لكل ما بذلته أمه في سبيل تربيته.

وعلاج هذا المريض وأمثاله لا يختلف عن سواه. عليه أن يفهم أن الأعراض البدنية صدى لاضطراباته العقلية وأن منشأها استنزاف الطاقة العصبية. فلابد من إزالة هذا التعب الذي استولى على أعصابه بالدواء وبذلك تزول الأعراض البدنية. وفي الوقت عينه ينبغي تنظيم حياته العقلية حتى يتعلم كيف يحب أمه، ولكن ليس على حساب زوجته وأن يتعلم كيف يكون مستقلًا في حياته، غير معتمد على أمه فيما يبت فيه من قرارات، وأن هذا الاستقلال لا يتعارض مع حبه واحترامه لأمه.

وكثيرًا ما تكون الزوجة هي التي تأتي لاستشارتي وتطلب مساعدتي في حل هذا المشكل والتوفيق بينها وبين الأم والزوج. وفي مثل هذه الحالة كنت أصارح الزوجة المسكينة أنها لن تستطيع وحدها الوصول إلى حل مُرضٍ، إذ لابد من علاج كل من الزوج والأم علاجًا طبيًّا وكل ما في وسعي أن أقوله لها فوق ذلك، إنهما مريضان.

بنات في خدمة الأمهات...

ليس الأبناء وحدهم هم الذين تمتص الأمهات دماءهم.. فالكثيرات منهن لا أبناء لهن ولكن لهن بنات، هناك عدد من النساء اللاتي بلغن سن الهرم أو الشيخوخة يحتفظن ببناتهن للعناية بهن والسهر ليلًا ونهارًا على خدمتهن. هؤلاء الأمهات بطبيعتهن أنانيات، شديدات الغيرة من حياة الغير وسعادتهم، لاسيما الأصغر منهن سنًّا، كل همهن أن يكن بطلات في مرشح الحياة، في الأسرة أو البيئة التي يعشن فيها.. لماذا؟ قد يكون الباعث الخوف من أن يهملن ويتجاهلهن الغير.

والمرأة العجوز التي يستولى عليها هذا اللون من الخوف تخلق من نفسها مشكلة للأسرة عسيرة الحل.. فتكشر عن ناب الغضب وتجعل حياة ذويها لا تُطاق إذا ما أعار أحدهم ابنتها التفاتة وخصها بنصيب من العناية أكبر من نصيبها. أما ابنتها فتلتزم الصمت في هذه الحالة وتظل وراء الستار؛ لعلمها أن أقل حركة منها تثير أعصاب الأم وتمثل دورًا عنيفًا من الأدوار التي أصبحت أخصائية فيها.

وليس ما يهمنا في هذا الفصل الأم بل الابنة المسكينة وقد ضحت بشبابها في سبيل خدمة الأم التي امتصت دمها فعلى وجهها الاصفرار وقتلها الخجل وأصبحت عاجزة عن القيام بعملها وضعفت شخصيتها. تقضي حياتها مجهدة متوترة تحارب عاطفتين وتعيش بين نارين: حبها الفطري لأمها واستيائها من معاملة أمها لها، كانت تقول لنفسها: (إذا كنت حقًّا أمينة لديني مطيعة لضميري، كان لزامًا علي أن أتغاضى عما تسببه لي أمي من متاعب وآلام، وإلا كنت خائنة، ناكرة للجميل، محبة لذاتي، بعيدة عن النبل والشمم). ويترتب على هذا إصابتها بالعصاب الذي يضعف طاقتها ويسبب لها الأعراض البدنية التي تتطلب الدواء والعلاج النفساني.

وكثيرا ما تطول هذه المآسي سنوات وتمتد أعوامًا بفضل تلك العجوز التي اشتهرت بقوة الشكيمة وكامل الصحة، فقد آلت على نفسها أن تقوم ابنتها على خدمتها والسهر على صحتها بلا توانٍ. ووطدت العزم على أن تعيش إلى التسعين أو أكثر، في الوقت الذي امتصت فيه دماء ابنتها، فذوي عودها ودب فيها الكبر قبل الأوان. وعندما يدنو الأجل وتموت الأم في النهاية، تكون العلل البدنية قد انهكت قوى البنت وتركتها مريضة البقية الباقية من حياتها، اللهم إلا إذا أتاحت لها الفرص العلاج.